مملكة الروس

القيصر ميخائيل رومانوف

وصلنا في الكلام على قياصرة الروس الى ميخائيل الاول الذي ابتدأت به دولة رومانوف الحاضرة. وقد رقي هذا الشاب الى سرير الملك لا بالارث ولا بالفتح ولا بالدسائس بل باجماع نواب الشعب على اختياره. فانهم اجتمعوا في مدينة موسكو سنة ١٦١٣ كهنتهم واشرافهم وتجارهم ورؤساء جنودهم واقروا اولاً على ان لا يختاروا للملك عليهم اجنبياً ثم اختلفوا في من يختارونهُ من الروس واخيراً ذكر اسم ميخائيل هذا فاجمعوا على اختياره لا لفضل فيهِ لانهُ كان حدثاً في الخامسة عشرة بل لفضل ابيهِ رئيس اساقفة موسكو وكان حينئذٍ سجيناً في مر يتبورج ولفضل اسلافهِ آل رومانوف. وكان اجماع الشعب على اختياره بث فيهم روح الالفة والنشاط ومن ثمَّ ابتدأ تاريخ روسيا الحديث

ولكن آثار الحكم السابق لم تزل بزوالهِ لاسيما وان البولنديين لم يرضوا من الغنيمة بالاياب بل حاولوا ابقاء السلطة في يدهم واسترجاع ما اضاعوهُ منها. وحذا اهالي اسوج حذوهم في الشمال الغربي من البلاد. وكانت المدن قد خربت وتولى السكان الفناء. وواضح مما تقدم ان الاشراف كانوا قد اعتادوا الصلف والعتو فعسر عليهم الخضوع والولاء. وكان ميخائيل حدثاً كما تقدم فلم يستطع ان يرغمهم على طاعتهِ كما فعل القيصر ايڤان. فانتقض حبل الامن وجعل الغرباء الذين في روسيا يغدرون على ايام ايڤان مع ما تخللها من القسوة. كتب واحد منهم وهو هولندي يقول « اللهم افتح عيني هذا القيصر كما فتحت عيني ايڤان والآخر بت موسكو ». لكن الشعب الروسي كان موالياً لقيصره راغباً في الطاعة والسير في سبل الفلاح فلما حان يوم تتويجهِ نهض المتطوعون وطلبوا رواتبهم التي لم تكن قد دفعت اليهم فبعث القيصر كتاباً الى اهل المدن الروسية يستنهض هممهم وغيرتهم الوطنية لدفع تلك الرواتب ولكي يساعدوهُ بالمال والرجال في طرد العدو من البلاد ورده عنها ففعلوا وتمَّ لهُ الفوز على خصومهِ بعد حروب كثيرة و بتوسط انكلترا وهولندا

وقد ذكر اهل التاريخ كيف طلب القيصر وساطة انكلترا وساعدتها فقالوا انهُ بعث الكس زسون سفيراً الى مدينة لندن ليقول للملك جمس « ان البولنديين قبضوا على تجارك الانكليز بعد خراب موسكو واخذوا بضائعهم وزجوهم في غياهب السجن ثم ذبحوهم » وقال

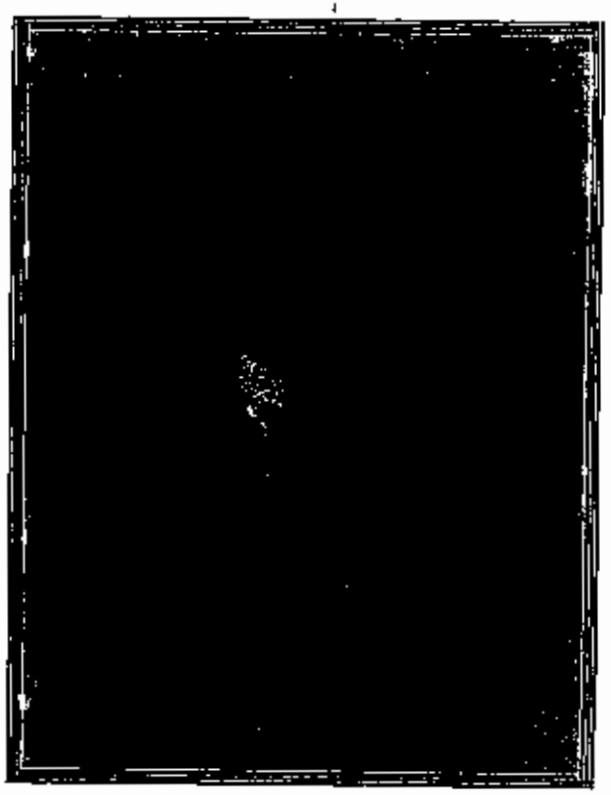

القيصر بطرس الاكبر

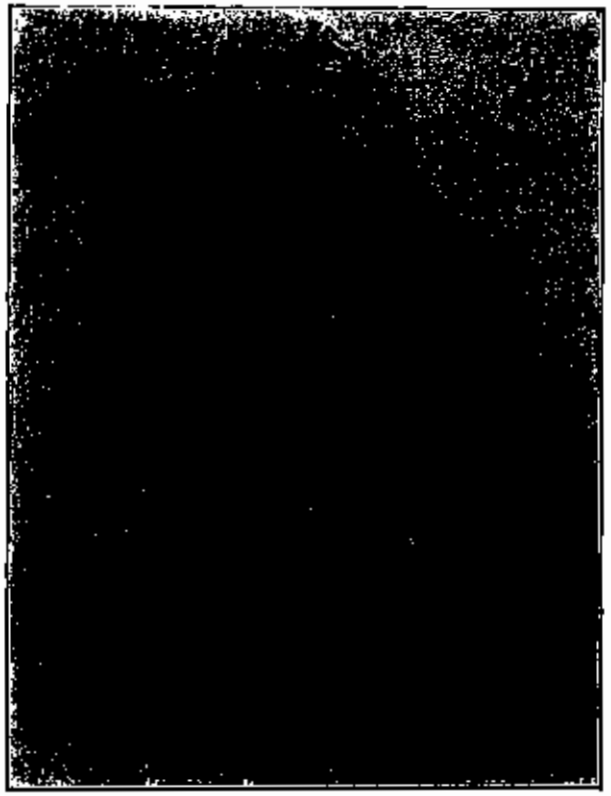

القيصر ميخائيل رومانوف الاول

للرسول انهُ اذا اتفق لملك الانكليز ان عرف ان الذين قتلوا رجالهُ هم القزاق لا البولنديون فعليهِ ان يستنبط لهُ اعذاراً اخرى . وطلب من ملك الانكليز ان يرسل اليهِ نقوداً وميرةً من البارود والرصاص والكبريت وما اشبه الى ما يساوي مئة الف روبل واذا لم يشأ ان يرسل كل ذلك فليرسل ما يساوي سبعين الف روبل او على الاقل خمسين الف روبل . والروبل يساوي الآن عشرة غروش مصرية وعليهِ فقد كان قيصر الروس يتوسل الى ملك الانكليز منذ ثلثمئة سنة ليقرضهُ ما يساوي عشرة آلاف جنيه فاقل الى خمسة آلاف جنيه . وهب ان قيمة النقود كانت حينئذٍ اغلى من قيمتها الآن عشرة اضعاف فلا يزيد هذا المال على مئة الف جنيه الى خمسين الفاً وهو الآن يطلب عشرة ملايين من الجنيهات فيتهافت الماليون على تقديمها في ساعة من الزمان

ويقال ان الملك جمس رحّب بالسفير وحاشيتهِ وقال لهم انهُ عالم بما ارتكبهُ الاسوجيون والبولنديون في روسيا وطلب منهم ثلاثاً ان يضعوا يرانيطهم على رؤوسهم (وذلك من دلائل التكريم لهم) فاعتذروا وقالوا « انا حينما نرى جلالك الابوي وصداقتك المخلصة لملكنا ونسمع كلامك الملكي في تمجيد ملكنا وننظر الى عينيك امام عيوننا ونحن عبيد اذلاء تعجز ايدينا عن رفع يرانيطنا ووضعها على رؤوسنا »

وفي السنة التالية جاء موسكو جون مرك سفيراً من قبل الملك جمس الاول وطلب من البرنس ايثان كوراكين ان يسمح للتجار الانكليز ان يتجروا مع الهند بطريق نهر اوبي ومع بلاد ايران بطريق القلغا واسترخان فقال لهُ البرنس ان الطريق غير امين فاسترخان لم تتمرد الاَّ حديثاً وقطاع الطرق يملأون القلغا ومتى استتبَّ الامن طُرحت هذه المسألة على بساط البحث لدى الملك جمس . ثم انقلبوا الى مسألة الوساطة فقال جون مرك ان ملك الانكليز جمع البارلمنت ليبحث في اصلح الطرق لمساعدة القيصر وحتى الآن لم يقرَّ على شيء . فقال البرنس كوراكين ألا يمكنك ان تضمن لنا ان ملكك يرسل الينا في الربيع المقبل ما طلبناهُ منهُ فقال مرك كيف اضمن ذلك والشقة طويلة ولا طريق لنا الاَّ في بلاد اسوج

ثم تلا ذلك توسُّط انكلترا لدى ملك اسوج حتى رضي ان يترك بلاد الروس و يأخذ عشرين الف روبل غرامة فتفرغت روسيا لمناوأة الك خصومها وهو ملك بولندا فناوأت عليهِ بعد جهاد طويل ودخلت في مصاف الدول الاوربية بعد ان اقصيت منهُ زماناً طويلاً وجيل ملوك اوربا يخطبون ودها وفي مقدمتهم غستافيوس ادلفس ملك اسوج فان البروتستانت خافوا ان يقضي عليهم الكاثوليك فقالوا لروسيا انَّ تغلُّب الكاثوليك علينا سهل عليهم التغلُّب

على الارثوذكسي ايضاً بعدنا وقد قال المثل اذا رأيت بيت جارك يحترق فاملا دلوك وساعده في اطفائه لئلا تمتد النار الى بيتك

وكان ملك الانكليز قد قرض القيصر عشرين الف روبل ثم طلب منه ان يفتح الطريق لتجاره الى الهند وايران فاستشار القيصر تجار موسكو في ذلك فقالوا ان فتح طرق التجارة للانكليز في بلادنا يمودعلينا بالخراب لانهم اغنى منا ولكن ان كانوا يدفعون مكوساً لحكومتنا وكانت الحكومة محتاجة اليها حتماً فنحن نضحي مصالحنا لمصلحة الحكومة . فابى الانكليز ان يدفعوا المكوس فردّ لهم تجار موسكو عشرين الف الجنيه التي اقرضوها للقيصر

ثم ارسل الملك لويس الثالث عشر ملك فرنسا يطلب من القيصر ما اباهُ على ملك الانكليز وهو طريق الى ايران . وهاك ترجمة ما قالهُ سفير فرنسا في هذا الصدد لترى كيف كان رجال السياسة يتخاطبون حينئذٍ قال « ان جلالة القيصر هو رأس البلدان الشرقية ورأس المذهب الارثوذكسي . والملك لويس هو رأس البلدان الجنوبية فاذا عقد القيصر محالفة معهُ تقوّى بهِ على اعدائهِ وكما ان الامبراطور (الروماني) محالف لملك بولندا يجب على القيصر ان يحالف ملك فرنسا . وهذان الملكان تجدان في كل مكان ولا مثيل لهما في القوة والسطوة ورعاياهما يطيعونهما طاعة عمياء بينما رعايا ملك الانكليز وملك هولندا يطيعونهما وقتما يريدون . والهولنديون يشترون البضائع من اسبانيا ويبيعونها من الرومانيين باثمان فاحشة واما الفرنسويون فيقدّمون لهم كل ما يطلبون باثمان معتدلة »

هذه اول معاهدة بين فرنسا وروسيا ولكنها كانت عقيمة لان تجار الروس ابوا فتح طريق ايران للفرنسويين قائلين انهُ اذا رغب الفرنسويون في البضائع الفارسية فليشتروها منا

وارسل السلطان عثمان الثاني الى القيصر يقول لهُ انهُ اعلن الحرب على ملك بولندا وطلب مساعدتهُ فجمع القيصر مجلس مشيريهِ واستشارهم في الامر فوافقوا على مساعدة السلطان ولكن وردت الاخبار حينئذٍ ان البولنديين فازوا على العثمانيين ووضعت الحرب اوزارها . وبقي القيصر ميخائيل على ولاء السلطان حتى لما فتح القزاق مدينة ازوف وسلموها لهُ ردها الى العثمانيين . وسعدت روسيا في عهدهِ فجاءها المهاجرون من ممالك اوربا وانشأ فيها رجل هولندي مسكاً للدافع والقنابل ورجل الماني ثلاثة مسابك اخرى واجيز لكثيرين من الصناع ان يقيموا في البلاد وينشئوا فيها المعامل على شرط ان لا يخفوا شيئاً من اسرار صناعتهم عن اهل البلاد . ومنعت الحكومة ادخال التبغ الى روسيا وعاقبت مستعملي السعوط بجدع الانف

واستدعي العلماء من اوربا فدعي ادم اولياريوس هولستين الفلكي الجغرافي الى موسكو وترجم كتاب في الفلك والجغرافية من اللاتينية الى الروسية وانشأ بطريرك موسكو مدرسة عالية فيها لتعليم اليونانية واللاتينية

وتوفي القيصر ميخائيل سنة ١٦٤٥ وخلفهُ ابنهُ الكسس وكان رجلاً صالحاً سهل المراس مثل ابيهِ. قال الكتّاب الذين عاصروهُ انهُ كان مهما اشتدَّ حنقهُ من احد لم يتجاوز الى غير رفسهِ او صفعهِ وكان اسرع خاطراً من ابيهِ ولكنهُ كان سريع الانقياد الى مشيرهِ فتسلط عليهِ معلمهُ موروزوف وبقي معهُ ثلاثين سنة لم يفارقهُ فيها. وكان موروزوف هذا على سعة عقلهِ وذكاء عقلهِ متكبراً ظالماً ولما اراد القيصر ان يقترن بماريا ميلوسلافسكي لم يعارضهُ في ذلك ولا خشي تقرُّب ذويها منهُ بل عزم على ان يستخدمهم لاغراضهِ فاقترن باختها بعد اقتران القيصر بعشرة ايام فصار نسيباً لهُ وزاد مقامهُ تمكناً. ولكن حماهُ ميلوسلافسكي كان شديد الطمع فاعطى موارد الحكومة لاقاربهِ فثار الشعب ونهبوا بيت موروزوف وبيوت كثيرين من الاغنياء واضطرمت النار في مسكو وجاهر الشعب بالعصيان فيها وفي غيرها من المدن ونهبوا تجار الالمان الذين فيها ولم تخمد الثورة الاَّ بعد عناء شديد فعوقب مثيروها عقاباً شديداً بالقتل والنفي والتعذيب. ولما كانت هذه الثورة ضاربة اطنابها في روسيا كان في بولندا ثورة اشد منها فحالما اخمد الروس ثورتهم عادوا الى مناوأة البولنديين واخذوا منهم جانباً من بلاد اوكرين المعروفة بروسيا الصغيرة ومكانها من القزاق

واشتدَّت الروابط بين القيصر وملوك اوربا تمكُّناً فجارت الحكومة الروسية شعبها في السير على منوال الممالك الاوربية الى ان توفي القيصر الكسس وخلفهُ ابنهُ ثيودور الثالث سنة ١٦٧٦ وتوفي بلا عقب بعد ما ملك ست سنوات ولم يحدث مدة ملكهِ شيء يستحق الذكر وكان اخوهُ الذي يليهِ في السن واسمهُ ايفان ابله فلم يملك ونودي باخيهِ الاصغر بطرس قيصراً وهو من ام اخرى وكان لايفان اخت من امهِ عالية الهمة اسمها صوفيا فاثارت الجنود غير المنظمة على القيصر بطرس فنادوا باخيها قيصراً وبها وصية عليهِ وعلى اخيهِ في صغرهما فتولَّت هذا المنصب وحكمت سبع سنوات. ولما رأت ان اخاها بطرس بلغ سن الرشد ورغب في ان يقبض على ازمة الملك بيدهِ حاولت القبض عليهِ فدرى بدسيستها وقبض عليها بواسطة الحزب المخالف لها وبعث بها الى احد الاديرة ووضع امهُ في مكانها وهو بطرس الاكبر وسيجيء الكلام عليهِ في الجزء التالي